



إذا داهمتك الأحزانُ والخُطوبُ، وكثرتُ عليك المعاصي والذنوب، وعزَّ عليك المأمول والمطلوب – فانطرح بين يدي مولك، وأظهر له فافتك وعجزك، واشكُ إليه حاجتك: ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾ [يوسف: 86]، إلى الله، لا إلى أحدٍ سواه!

إِذَا أَرْهَقْتَكَ هُمُومُ الْحَيَاةِ *** وَمَسَكَ مِنْهَا عَظِيمُ الضَّرَرِ
وَدُقَّتْ الْأَمْرَيْنِ حَتَّى بَكَيتَ *** وَضَجَّ فُؤَادُكَ حَتَّى انْفَجَرَ
وَسَدَّتْ بِوَجْهِكَ كُلُّ الدُّرُوبِ *** وَأَوْشَكَتَ تَسْقُطُ بَيْنَ الْحَفْرِ
فَيَمِّمُ إِلَى اللَّهِ فِي لَهْفَةٍ *** وَبُتَّ الشَّكَاةَ لِرَبِّ الْبَشَرِ

فإذا فعلت ذلك سمع الله شكواك، واستجاب دعاك، كما استجاب لمن سبقك من الأنبياء والصحابة والأخيار؛ فهذا أيوب – عليه السلام – يشكو حاله إلى ربه، فيقول: ﴿ أَنِّي مَسْنِي الضُّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [الأنبياء: 83]؛ فسمع الله شكواه، واستجاب دعاه، وكشف بلواه: ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرِّهِ وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرَى لِلْعَابِدِينَ ﴾ [الأنبياء: 84].

وهذا يونس – عليه السلام – ينادي ربه ويُناجيه، ويشكو إليه حاله، فينادي ﴿ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء: 87]؛ فسمع الله شكواه، واستجاب دعاه، وكشف بلواه: ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَتَجِيبْنَا مِنْ الْعَمِّ وَكَذَلِكَ نُجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنبياء: 88].

وهذا نبينا – عليه الصلاة والسلام – يشكو حاله إلى ربه، فيناديه: ((اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضبٌ عليّ فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر

الدنيا والآخرة من أن تُنزل بي غضبك، أو يحل عليّ سخطك، لك العُتْبَى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك)) [1].

وهذا خَبِيب بن عَدِي حينما رفعوه على خشبة الصلب اشتكى حاله إلى ربه، فقال:

لَقَدْ جَمَعَ الْأَحْزَابُ حَوْلِي وَأَلْبُوا *** قَبَائِلَهُمْ وَاسْتَجْمَعُوا كُلَّ مَجْمَعٍ
وَقَدْ جَمَعُوا أَبْنَاءَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ *** وَقُرَيْتُ مِنْ جَذَعِ طَوِيلٍ مُمْنَعٍ
إِلَى اللَّهِ أَشْكُو غُرْبَتِي بَعْدَ كُرْبَتَايَ *** وَمَا أَرُصِدُ الْأَحْزَابُ بِي عِنْدَ مَصْرَعِي
فَذَا الْعَرْشِ صَبْرَتِي عَلَى مَا يُرَادُ بِي *** فَقَدْ بَضَعُوا لِحْمِي وَقَدْ يَاسَ مَطْمَعِي
وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ وَإِنْ يَشَاءُ *** يُبَارِكُ عَلَى أَوْصَالِ شَيْلٍ مُمَزَّعٍ
لِعَمْرِي مَا أَحْفَلُ إِذَا مِتُّ مُسْلِمًا *** عَلَى أَيِّ حَالٍ كَانَ لِلَّهِ مَضْجَعِي [2]

وهذه امرأةٌ ضعيفةٌ تشكو زوجها إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيسمع الله شكاها، ويحل مشكلتها بآيات تتلى إلى يوم القيامة: ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة: 1] الآيات.

وهذا الربيع بن خثيم يقول في شكاها: \اللهم أشكو إليك حاجة لا يحسن بثها إلا إليك، وأستغفر منها وأتوب إليك\" [3].

أَصْعِدْ أَنْفَاسِي وَأَحْدِرْ عَبْرَتِي *** بِحَيْثُ يَرَى ذَاكَ الْإِلَهُ وَيَسْمَعُ
إِلَى اللَّهِ أَشْكُو لَا إِلَى النَّاسِ إِنَّمَا *** مَكَانُ الشَّكَايَا لَا يَضُرُّ وَيَنْفَعُ

والله يحب أن يسمع عبده يشكو إليه، وَيَمَقَّتْ منه أن يشكوه إلى خلقه، قال ابن القيم: \بل أراد منه أن يستكين له، ويتضرع إليه، وهو - تعالى - يَمَقَّتْ مَنْ يشكوه إلى خلقه، ويحب مَنْ يشكو ما به إليه، وقيل لبعضهم: كيف تشتكى إليه ما ليس يخفى عليه، فقال: رَبِّي يَرْضَى ذل العبد إليه\" [4].

لَبِستُ ثوبَ الرجا والنَّاسُ قد رَقَدُوا *** وَبِتُ أَشْكُو إِلَى مَوْلَايَ مَا أَجِدُ
وَقُلْتُ: يَا أَمَلِي فِي كُلِّ نَائِبَةٍ *** وَمَنْ عَلَيْهِ لِكشْفِ الضَّرِّ أَعْتَمِدُ
أَشْكُو إِلَيْكَ أَمُورًا أَنْتَ تَعَلَّمُهَا *** مَا لِي عَلَى حَمْلِهَا صَبْرٌ وَلَا جَلْدُ
وَقَدْ مَدَدْتُ يَدِي بِالذَّلِّ مَبْتَهَلًا *** إِلَيْكَ يَا خَيْرَ مَنْ مَدَّتْ إِلَيْهِ يَدُ
فَلَا تَرُدَّنَّهَا يَا رَبُّ خَائِبَةً *** فَبِحِرِّ جُودِكَ يَرُوي كُلَّ مَنْ يَرِدُ [5]

ومع شكواك لربك، فلا بد لك من التحلّي بالصبر الجميل، وهو الذي لا شكوى معه إلى الخلق، ولا تضجر ولا تسخط، وإنما تشكو إلى الخالق الرحيم الرحمن القادر، لا إلى المخلوق الضعيف العاجز، الذي لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً.

يقول أحد الشعراء الحكماء:

وَإِذَا عَرَكَ بَلِيَّةٌ فاصْبِرْ لَهَا *** صَبْرَ الْكَرِيمِ فَإِنَّهُ بِكَ أَعْلَمُ
وَإِذَا شَكَّوتَ إِلَى ابْنِ آدَمَ إِنَّمَا *** تَشْكُو الرَّحِيمَ إِلَى الَّذِي لَا يَرْحَمُ [6]

وهذا عمر يقول: \ما في الشكوى إلى الخلق إلا أن تُحزنَ صديقك، وتشمّت عدوك\" [7].
وقال الأحنف: \شكوتُ إلى عمي في بطني فنهرني، ثم قال: يا ابن أخي لا تشكُ إلى أحدٍ ما نزل بك، فإنما الناس رجلان، صديق تسوءه بهذه الشكوى وتؤلمه، وعدو تسرّه\" [8].

قَدْ يَفْقِدُ الْمَرْءُ بَيْنَ النَّاسِ عِزَّتَهُ *** إِذَا شَكَأَ أَمْرَهُ أَوْ سَبَّ مِحْنَتَهُ
فَكُنْ كَلَيْثِ الشَّرِيِّ مَا بَاعَ هَيْبَتَهُ *** وَلَا تَشْكُ إِلَى خَلْقٍ فَتَشَمَّتَهُ

والشكوى لغير الله حمق وجهالة، قال ابن القيم: \الجاهل يشكو الله إلى الناس، وهذا غاية الجهل بالمشكو والمشكو إليه، فإنه لو عَرَفَ ربه لما شكاه، ولو عرف الناس لما شكوا إليهم، ورأى بعض السلف رجلاً يشكو إلى رجل فاقتته وضرورته، فقال: يا هذا، والله ما زدت على أن شكوت من يرحمك.

وفي ذلك قيل:

وَإِذَا شَكَّوتَ إِلَى ابْنِ آدَمِ إِنَّمَا *** تَشْكُو الرَّحِيمَ إِلَى الَّذِي لَا يَرْحَمُ.

والعارف إنما يشكو إلى الله وحده وأعرف العارفين من جعل شكواه إلى الله من نفسه لا من الناس [9]. وقال شيخ الإسلام: \وكل من علق قلبه بالمخلوقين أن ينصروه أو أن يرزقوه، أو أن يهدوه؛ خضع قلبه لهم، وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك [10].

إِنَّ الْوَقُوفَ عَلَى الْأَبْوَابِ حَرَامٌ *** وَالْعِجْزُ أَنْ يَرْجُوَ الْإِنْسَانَ
مَتَى تَوَمَّلَ مَخْلُوقاً وَتَقْصِدُهُ *** إِنْ كَانَ عِنْدَكَ بِالرَّحْمَنِ إِيمَانٌ
تَقُّ بِالَّذِي هُوَ يُعْطِي ذَاً وَيَمْنَعُ ذَاً *** فِي كُلِّ يَوْمٍ لَهُ فِي خَلْقِهِ شَأْنٌ [11]

ومع هذا كله فلا مانع من أن تبتئ شكواك، وتبوح بحاجتك إلى أصحاب المروءات، وذلك في الأمور الدنيوية المقذور عليها.

وَلَا بُدَّ مِنْ شَكْوَى إِلَى ذِي مُرْوءَةٍ *** يُوَاسِيكَ أَوْ يُسَلِّيكَ أَوْ يَتَوَجَّعُ [12].!

مع حسن توكلك، وقوة اعتمادك على خالقك ومولاك!
وأحياناً قد لا يجد الإنسان حلاً إلا أن يبوح بشكواه إلى أهل الخبرة والاختصاص.

قال أحد الشعراء:

شَكُوتُ وَمَا الشُّكُوى لِنَفْسِي عَادَةٌ *** وَلَكِنْ تَفِيضُ النَّفْسُ عِنْدَ امْتَلَائِهَا [13].

وقفنا الله وإياك لطاعته، وأبعدنا الله وإياك عن معصيته.

[1] رواه الطبراني في المعجم الكبير (13/73)، وحسنه ابن كثير في تفسير القرآن العظيم (7/267).

[2] انظر: المعجم الكبير للطبراني (5/259)، ودلائل النبوة لأبي نعيم (1/507).

[3] صفة الصفوة لابن الجوزي (2/39).

[4] عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين؛ ابن القيم، (36).

[5] موارد الظمان؛ عبد العزيز السلطان (2/91-92).

[6] غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب؛ السفاريني (1/456).

[7] محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء؛ الأصفهاني (524).

[8] وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان؛ ابن خلكان (2/505).

[9] الفوائد، ابن القيم، ص (87).

[10] العبودية، ابن تيمية، ص (87).

[11] الآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح (3/280).

[12] نظم العقيان في أعيان الأعيان، السيوطي، (67).

[13] المجلس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي، أبو الفرج النهرواني، ص (555).

صيد الفوائد

المصادر: